

بندیکت سبینوزا

صورة وذكري

في ٢١ فبراير الماضي كان قد مضى على وفاة الفيلسوف سبينوزا مايتان وخمسون عاماً ميلادياً . فقد توفي في مثل هذا اليوم من سنة ١٦٧٧ . وكل من يزور مدينة

« لاهاي » اليوم يرى اذا ما مرّ بشارع بافلجوين منزلاً حقيراً مكوناً من طابقين ، وفي الطابق العلوي منهما ، وهو يتركب من حجرتين صغيرتين ، أمضى سبينوزا السنوات الست الاخيرة من عمره القصير . وعلى احدى نوافذ هذا الطابق علقت لوحة يشير ما كتب فيها الى هذا الحادث الكبير .



في هاتين الحجرتين أتم سبينوزا

كتابه « الايثيكا » Ethica وفيه

بندیکت سبینوزا — ١٦٣٢ — ١٦٧٧

بث كل مذهبه الاخلاقي . ولا جدال في أن هذا الكتاب يعد حتى اليوم أعظم ما كتب الكاتبون ، وأمتع ما أخرج الفلاسفة في تاريخ الميتافيزيقا . « الغيبيات » فهو تاج على مفرق الدهور ، لم تتوج به الفلسفة وحدها ، ولم ينل شرفه الفلاسفة بمفردهم ، بل توجت به الانسانية منذ أبعد العصور التي ظهرت فيها آثارها فوق هذه الارض حتى اليوم ، لأنها أنجبت سبينوزا العظيم الذي أشع عقله الكبير بجاث في « الايثيكا » من مبادئ ، في عصور أخص ما اتصفت به حب السبح في الظلمات .

لقد عملت حادثات الدهر في ذلك البيت ، وامتدت أنية يد البلى . حتى لقد

اضطرت الجمعية الاسبينوزية أن تعمل على ترميمه احياء لذكرى الفيلسوف الكبير ، وأن تجعله بعد ترميمه مقراً للدراسات الفلسفية . ولم تغب بعد عن الاذهان ذكرى ذلك اليوم الذي حمل فيه القعدة معاولهم ومحافهم وقد يعموا شطر المنزل الذي كان يسكن فيه ارasmus أحد أركان النهضة في عصر التجديد الاوروبي ، في روتردام ، فلم يتركوا منه قائماً ولا صعيداً . ولا مرة في أنه مما يأخذ بمجامع النفس حزناً وأسى أن يكون مصير المنزل الذي سكنه سبينوزا ، أحد الذين أحبوا الانسانية وعملوا على خيرها ، كمصير غيره من مواطن الفلاسفة والعظماء . ولا جدال في أن العودة الى درس فلسفة سبينوزا في هذا الزمان ، كانت عاملاً من أكبر العوامل التي شجعت الجمعية القائمة لاهياء ذكراه على التفكير في تخليد آثاره . وعسى أن تستطيع أن تبث شيئاً من مبادئه الاخلاقية العالية بين جماعات العصر الحديث ، فتكون قد عمات لما هو أخير ، وتكون قد خدمت ذكرى الفيلسوف العظيم بما هو أخلد وأبقى .



جون كالن — ١٥٠٩ — ١٥٦٤

لم يظهر لاسبينوزا خلال سني حياته سوى كتابين ، الاول ترجمة الجزأين الاولين من كتاب ديكارت « مبادئ الفلسفة » ملحقاً بتذييل في « الآراء الميتافيزيقية » والثاني كتابه الذي اسماه (مقالة في اللاهوت السياسي) Tractatus Theologico-Politicus ولقد ظهر ثانيهما سنة ١٦٧٠ ، ثم منع عن نشره سنة ١٦٧٤ بتأثير تعصب الكالفينيين ، أتباع كالفن المشهور . وكان هذا التعصب سبباً في أن لا يفكر

سبينوزا في نشر شيء مما كانت تجود به قريحته الوقادة . فترك الايثيكا ، وكل ما كتب رهن الطروس كما خطتها يراعتة ، فودع العالم وأودعتها نهب الحوادث .

غير أن الحظ ساق إليها نفر من أصحابه في أمستردام هبوا الى حفظ تلك الآثار الخالدة سراعاً ولم يكد يمضي عام واحد على وفاة سبينوزا حتى ظهر أول كتبه التي نشرت بعد موته المسمى «أوبرا بوستيوما» Opera Postuma ولكن هنالك هب اللاهوتيون خفافاً وثقالاً يناهضون آثار الراحل العظيم بعد موته ، ولم يأت يوم ٤ فبراير سنة ١٦٧٨ حتى صبوا اللعنة على كتاب «الاورا بوستيوما» . زاعمين أنه كتاب «تجديف لم يظهر له من مثيل منذ خلق العالم حتى اليوم» . لم يمض على هذا الحادث قرنان من الزمان حتى تهيأت النفوس وأعدت العقول لأن يقام لاسبينوزا أثراً تذكاريًا كان من حسن الحظ أن يدشنه «رينان» أحد عظماء القرن الماضي ، ومن أكبر مؤرخي النصرانية ، مشيراً بأصبعه الى النافذة التي كان يدال منها سبينوزا على شارع بافيلجوين قائلاً — «لعل الله كان أقرب الى هذه النافذة منه الى أى مكان في الارض»

إن هذا الحادث يظهر لنا على مقدار ما تطورت الفكرة في حقيقة سبينوزا . ولا ننسى هنا أن نذكر فضل العاملين على إحياء مذهب الفيلسوف الكبير وشرح آرائه . ومن من الباحثين كان أشد من مينرما وميروفرو دنتال وجبهاردت اكبا على درس آثار سبينوزا وكذا في سبيل إذاعة آرائه والعمل على بثها في صدور الناس على مر الأجيال . وكذلك يجب أن نعي أن اتهام بايل وليبنز وسيمون وغيرهم من الفلاسفة لاسبينوزا بأنه كان ملحداً ، مجازاة للرأى السائد ، لم يكن الا وسيلة حاولوا بها أن يصرفوا عما يقولون نظر الناقدين من أهل التعصب ، والمتعصبين من أهل الفلسفة والعلم

ولقد مجد كل من احتك باسبينوزا سمو أخلاقه ورضى صفاته . وجاراهم في ذلك كل الناس حتى أولئك الذين مضوا غير مقتنعين بفلسفته ، والذين لم تستطع مواهبهم العقلية استيعاب أفكاره العالية . وعدت على الناس سنون عديدة اعتادوا فيها ، مجازاة لما رمى به اللاهوتيون سبينوزا من تهمة الهرطقة ، ان يدعوهم «أمير الملحد» وبنوا على ذلك انه لا بد من أن يكون يوم الدينونة العظيم متربهاً على عرش جهنم ، وقد توج على أهلها ملكاً . أما هذه الآراء العتيقة فقد تغيرت الآن وذابت تحت نيران الفكر الحديث الذي أوقدته الممارك الشديدة . حتى قامت بين أهل العلم وأهل اللاهوت . ولم يقتصر أهل الدين من المحدثين كلامهم

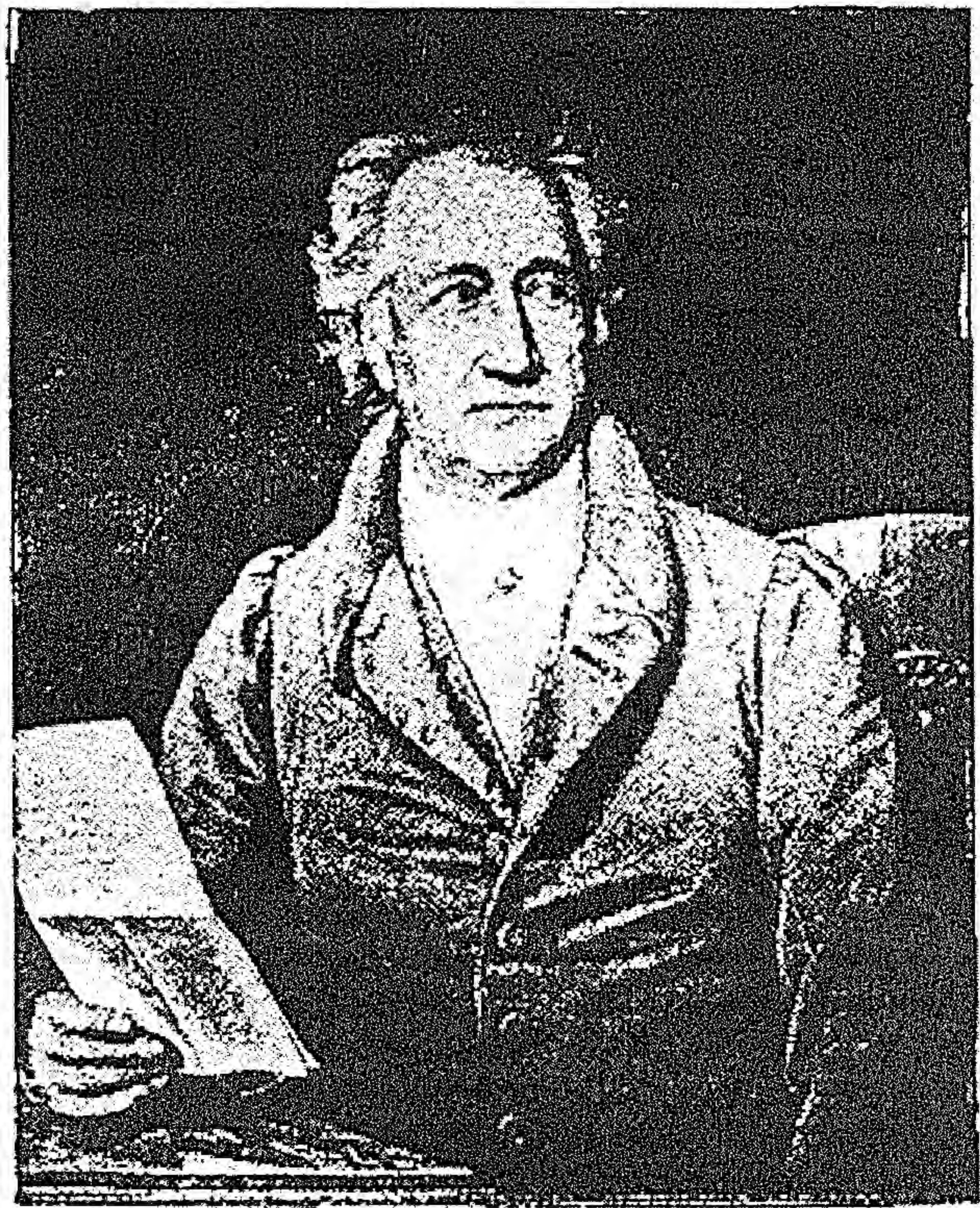
في سبينوزا على امتداح أخلاقه والعمل على اذاعة فلسفته ، بل مضوا يقولون بأنه أول رائد لذلك الميدان الفسيح الذي ولجته مفسرو الاناجيل من بعده ، عاملين على بث الكثير من التعاليم التي من أجلها دمع سبينوزا بدماع الكفر والاحاد خلال أيام حياته ، وخلال عدة من الاجيال بعد مماته . ولا مرية في أن زماننا هذا ككل زمان مضى ، فيه من الجهالة والمتعصبين نفر لا يزالون حتى اليوم يعلنون سخطهم على سبينوزا وفلسفته . غير أن هؤلاء لحسن الحظ أقلية لا يعبأ بها أحد من المستنيرين بنور الطريقة العقلية الحديثة ، أولئك الذين يعجدون سبينوزا كفياسوف ومصلح اجتماعي ، بل كرائد من رواد الفكر الانساني ، ولو لم يقبلوا كل نظرياته على علاقتها .

اننا ولا شبهة نكون أقرب الى الاقسط في القول اذا مضينا في هذا البحث نحائمين بأن المذهب الاسبينوزي لا يزال حتى اليوم بعيد عما يستحق من عدالة المفكرين على أن جلة ما أقسط به مؤرخو العصور الحديثة والناظرون في مذاهب الفلسفة لمذهب الفيلسوف الكبير ، انهم لم يجعلوا لما يرفضون من آرائه تأثيراً على ما يرون من رأى في أخلاقه ، وتاريخ حياته . وليس هذا كل ما يطلب من مفكرى القرن العشرين . فان الواجب أن نقسط ، وأن نعدل ، وأن نعطي بن الانسانية البار حقه من عطف الانسانية . ولن نصل الى هذا الا اذا اعتقدنا بأن الطريق الأقوم أزاء هذا الامر هو أن نجعل تفسير فلسفة سبينوزا رهن على درس تاريخ حياته درس تفصيل ، والا كباب على تعرف حقيقة أخلاقه كباب نقد وتحليل . واذا كان درس ترجمة الفلاسفة من أخير الوسائل لاستيعاب حقيقة ما يرون في الفلسفة من رأى ، فان سبينوزا أحق الفلاسفة جميعاً بأن يتبع في درسه هذه الوسيلة وحدها دون غيرها . ولقد جهر كثير من الذين أكبوا على درس سبينوزا في العصر الاخير برأيهم تلقاء هذا الامر . فقضوا بأن السبب في أن كثيرين ممن عكفوا على تفسير فلسفة سبينوزا ، حتى من أيدها منهم ، قد عموا عن الطريق القويم وهاموا في فوات من الفكر أضلهم سبيل الوصول الى حقيقة آرائه ، انما يرجع الى أنهم فصلوا بين سبينوزا وبين فلسفته فعكفوا على درس الفلسفة وتركوا الرجل . فكان مثلهم كمثل من أكب على المسببات وترك الاسباب المباشرة التي

أوجدتها ، فعرف شيئاً ولكنه لم يعرف الحقيقة والعلة الاولى أين هي ؟ وكيف وجدت ؟ ولماذا أوجدت ؟ وعلى هذا لا تغالى اذا قررنا بأن تفسير فلسفة سبينوزا من غير درس سبينوزا نفسه ، أمر أقل ما فيه انه يقودنا دائماً الى مزلق الشطط في القول والفكر .

لم يكن لا سبينوزا من حظ في الفلاسفة . وكان حظه من أهل اللاهون حظ الذين سبقوه من رواد الفكر الانسانى مثل كوبرينكوس وغاليليو وجيوردانو برونو وغيرهم . على أنه

كان أسعد حظاً مع الشعراء منه مع أهل مهنته النبيلة ففي أوائل القرن التاسع عشر أشاد الشعراء بذكر الفيلسوف الكبير وقد كاد ينسأد الفلاسفة . أشاد بذكره ليسنج وجوته وكوليردج ووراردسورث وهين وغيرهم . على أن الفلاسفة وأساتذة الفلسفة لم يغيروا حتى الآن موقفهم أزاء سبينوزا . فعلى الرغم من أن اسمه قد أخذ يتردد



جوته — ١٧٤٩ — ١٨٣٢

الآن حيناً بعد حين ، فانه لم تتحرك به الا السنة العلماء الذين غلبت عليهم الفلسفة ، لا الفلاسفة الذين غلب عليهم حب العلم

وليس في حقائق التاريخ الحديث من شيء يجعلنا ندعج لهذا . فان القرن السابع عشر كان عصر العلم الذهبي . وقد جمع أكبر من ظهر فيه من الفلاسفة بين العلم والفلسفة ، فكانوا فلاسفة وكانوا علماء ، وهذه حقيقة تنطبق على اسبينوزا ، كما تنطبق على ديكارت وليبنز . فانه كان عالماً « بالبصريات » وبها امتن . وكتب في تحليل قوس قزح وفي كثير من مشكلات انفوسيقى ، وليس بعيد لو امتد به أجله ، انه كان يكتب فيها كتاباً ممتعاً ، لولا أنه عاجلته المنية

وهو بعد في الرابعة بعد الأربعين . على أن ما كتب في العلم على الرغم من أنه لا يستحق الالتفات ولا درس ، فان فيه من روح العلم الحديث ، أو كما يقولون من قوالب الفكر العلمى ، ما يرفع سبينوزا الى مصاف كبار العلماء الذين ظهروا في القرن السابع عشر ، عصر العلم الذهبى . على أنك لا تحكم هذا الحكم وتكون به أشد تشبهاً منك اذا قرأت ما كتب بويل ونيوتن في اللاهوت ، لتعرف الى أى حد ذهبت باسبينوزا منازعه العاصية . وإلى هذا الأمر يعزى فى الحقيقة السبب فى أن سبينوزا اليوم أكثر صلة بفلاسفة العلماء منه بعلماء الفلاسفة . وعلى الأخص فى عصر كمصرنا هذا ، قلت فيه الثقة ، حتى بنيوتن نفسه



من أكبر الأخطاء التى يقع فيها كثير من مفكرى هذا العصر اعتقادهم بأن فلسفة سبينوزا قد بادت منذ زمان بعيد، وانها أصبحت من الأشياء التاريخية التى لا يمكن أن تأخذ بصلع فى تقدم الحضارة الحديثة . بيد أن الحقيقة الواقعة هى أن فلسفة سبينوزا لا تزال كما كانت منذ ظهورها فى القرن السابع عشر مملوءة حياة وقوة ، فائضة بكل ما يبعث على العمل والتأمل وليس معنى هذا القول أنها

صمويل تيلور كولردج — ١٧٧٢ — ١٨٧٦

حقيقة كاملة فى ذاتها ، أو أنها مذهب تام النواحي متلائم الاجزاء . فانها ، شأن كل الأشياء الانسانية ، يعتورها النقص وتجربى فى تضاعيفها الأخطاء . وأى مذهب من مذاهب الفلسفة ، أو مبدئ من مبادئ العلم ، لا تصدق عليه هذه الحال بعينها ؟ غير أن هذا كله غير كاف للزعم بأن فلسفة سبينوزا قد عقت عن الانتاج وبارت فأحلت

والحقيقة أن بحث فلسفة سبينوزا قد بدأ في هذا العصر فإن هذه الفلسفة لم تدرس في عصر من العصور الماضية درساً وافراً يظهرنا على كل ما في نواحيها من الحق الثابت . فإن فلسفة النقد الحديث ، على الرغم من أنها حاولت أن تهدم كل ما هو قائم من عهد المعرفة لنفسح بذلك طريقاً للإيمان ، وفضلاً عما ترتب على ذلك من أنها لجأت الى تسليم ذوى العقيدة من ناحية ، وإلى حيرة اللاأدريين والشكيين من ناحية أخرى ، فإنها قد قبضت على زمام الفكر والمواطف طوال القرن التاسع عشر ، فأعادت خطأ الصور المذهبية في الفلسفة وفي طليعتها مذهب سبينوزا ، عن الانبعاث في سبيل النشوء والارتقاء .

على أن البحث في الغيبيات ، وإن شئت فقل في « القصد والغاية » التي تختفي وراء الظواهر الطبيعية ، لا يزال كما كان خلال العصور الغابرة ، قبلة الفكر والتأمل بل ولا نغالي إذا قلنا بأن الفلسفة قد حولت دفتها نحو هذه الابحاث تارة أخرى في العصور الأخيرة . والذين لا يجدون في منازعهم من حب الغلو قدراً يجعلهم غير كاملين الاعتقاد ولا كاملين الشك ، لا يزالون يجدون في فلسفة سبينوزا وفي مختلف أبحاثه الكثيرة من مناحي التفكير العميق ما يرضى نزعاتهم ، ويسد فراغ تأملهم . على هذا نستطيع أن نقول بكثير من الاطمئنان ، إن فلسفة سبينوزا ستجد من أبناء الجيل الحاضر تفر يعرف لها قيمتها ويقدرها قدرها ، وسوف لا تمر سنة ١٩٣٢ ، وفيها سيختم القرن الثالث من ميلاد سبينوزا ، حتى تكون فلسفة هذا النابغة الكبير قد شاعت بين المتعلمين والفلاسفة ومحبي التأمل شيوع غيرها من ضروب الفلسفة المعروفة الآن بين جلة النابهين من أبناء هذا العصر

فيلوزوف

لحافظ إبراهيم عن لسان ماكبث ترجمة عن شكسبير :

كأنى أرى في الليل سيفاً مجرداً	تطير بكلماتي صفحتيه شرار
أراه فتدني إلى شراستي	فينأى وفي نفسي إليه أوار
على الفتك يا ضنكاً صحت عزيمتى	وان لم يكن بينى وبينك ثار
فيا حلم قاطعنى ويا رشد لا تثب	ويا شر مالى من يدك فرار
ويا ليل أنزلنى بجوفك منزلاً	يضل به سرب القطا ويحار